الأبعاد الدينية والاجتماعية في رحلة ابن جبير الأندلسي

Religious and social dimensions in the journey of IbnJubayr Andalusi

رضوان غربي[1]، د/فاطمة دخية[2]

[1] جامعة بسكرة (الجزائر)، radouan.gharbi15@gmail.com

[2] جامعة بسكرة (الجزائر) f.dakhia@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2021/07/01 تاريخ القبول: 2021/09/30 تاريخ النشر: 2021/12/20

ملخص:

يعالج البحث "الأبعاد الدينية والاجتماعية في رحلة ابن جبير الأندلسي"، حيث استهدف أدب الرحلة كجنس أدبي قائم بذاته له مميزاته وخصائصه الفنية والفكرية، إذ يحاول إبراز بواعث الرحلات، والتركيز على تجليات الأبعاد الدينية في الرحلة، من خلال الوقوف على بعض المعالم والرموز الدينية ومختلف العادات والطقوس التي استرعت انتباه الرحالة في مختلف الأقطار التي زارها، بالإضافة إلى تسليط الضوء على البعد الاجتماعي، والإشارة إلى اللباس كمظهر من المظاهر الاجتماعية التي تشكل صورة خاصة لكل مجتمع، خاصة في المناسبات الاجتماعية. ويستعين البحث بالمنهجين التاريخي والوصفي التحليلي لاستجلاء مختلف الظواهر الاجتماعية والدينية التي تضمنتها الرحلة.

كلمات مفتاحية: الرحلة؛ الأدب؛ الدين؛ المجتمع؛ الأندلس.

Abstract:

The research deals with the "religious and social dimensions in the journey of IbnJubayr Al-Andalus", where it targeted the travel literature as a separate literary genre that has its artistic and intellectual characteristics and characteristics. The customs and rituals that drew the attention of travelers in the various countries he visited, in addition to highlighting the social dimension, and referring to dress as a social manifestation that constitutes a special image for each society, especially on social occasions. The research uses the historical and descriptive analytical methodologies to elucidate the various social and religious phenomena that were included in the trip.

Keywords: flight; literature; Religion; the society; Andalus.

المؤلف المرسل: رضوان غربي، **الإيميل:** radouan.gharbi15@gmail.com

1-مقدمة:

يعد أدب الرحلة من المصادر المهمة التي تثري المعرفة الإنسانية، وتمكن الإنسان من الاطلاع على مختلف الظواهر الاجتماعية والثقافية لدى الشعوب والمجتمعات، لاسيما وأن أدب الرحلة فن أدبي متميز قائم بذاته، كونه يؤدي وظيفة فنية وفكرية جليلة، تقوم على وصف وتصوير الحياة والعالم من خلال ما يشاهده الرحالة من العوالم الواسعة، والمشاهد اللافتة للانتباه أثناء الرحلة، غير أن الرحالة لا يكتف بالوصف والمشاهدة بل يستقرأ أحوال الشعوب ويتعرف على ثقافاتهم وتقاليدهم وطرق تفكيرهم، وينقل للقارئ أدق التفاصيل التي عاينها في المجتمعات التي زارها بلغة تبرز الخصائص الثقافية والاجتماعية السلوكية التي يتميز بها كل مجتمع عن آخر،ونظرا لما يحتويه أدب الرحلات من مادة معرفية شاملة ودسمة، تمثّل رحلة ابن جبير أنموذجا مهما من الرحلات المتميزة، لذلك وقع اختياري على رحلة ابن جبير التي عدها الكثير من الدارسين بأنها "**أحسن ما ألف في الرحلات لما تميزت به من مستوى أدبي رفيع**..."(سعد، 1961، صفحة 109)، وكذلك مضامينها الفكرية التي لم تنل حظا وافرا من الدراسة والتمحيص، وبناء على هذا الأساس يهدف البحث للإجابة عن إشكال أساسي تمثل فيما يأتي: ماذا نقصد بأدب الرحلة؟ وما هي القيمة العلمية والأدبية التي يتميز بها؟ وفيما تتمثل أهم الأبعاد الدينية والاجتماعية التي سعى ابن جبير إلى عرضها في رحلته؟.

ولمعالجة إشكالية البحث اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي الذي يتخلله المنهج التاريخي، الذي يتناسب مع طبيعة الموضوع.

وتمثلت أهداف الدراسة فيما يلي:

-إماطة اللثام عن الأبعاد الدينية والاجتماعية في رحلة ابن جبير.

-الكشف عن القيمة العلمية والأدبية لأدب الرحلات ودورها في خلق جسور التواصل بين مختلف الشعوب والمجتمعات.

2-مفهوم أدب الرحلات:

يعد أدب الرحلات من الفنون الأدبية التي حظيت باهتمام كبير من طرف الدارسين والأدباء،نظرا لمميزاته الفنية ومضامينه الفكرية والمعرفية التي يزخر بها، وذلك ما أدى إلى اختلاف وجهات النظر إلى هذا الفن، فنجد صاحب معجم "المصطلحات العربية في اللغة والأدب " يعرفه بقوله: "**إن أدب الرحلات مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلدان مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من**

عادات وتقاليد وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي شاهدها، أو سرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"(مهندس، 1948، صفحة 16).

نلمح من خلال هذا القول أن أدب الرحلة من الفنون الأدبية، التي يحرص فيها الرحالة على نقل ثقافة البلدان التي ارتحل إليها بكل ما تحويه من عادات وأخلاق، يضاف إلى ذلك رصد مختلف المشاهد المميزة لتلك البلاد وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، مازجا ذلك كله بانطباعاته الذاتية.

كما يتلاءم مع هذا الرأي ما أكده الباحث "**عبد النبي ذاكر "في وصفه لأدب الرحلة بأنه "شكل أدبي هجين ينماز بتعدد أوجهه وتمظهراته إلى حد أنه يمكن القول أنه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماطا خطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات، الشيء الذي يعطي الانطباع بأنه شكل مائع ومرن إلى حد كبير**"(الموافي، 1995، صفحة 49). ومن هنا يتبين أن أدب الرحلة جنس أدبي يتسع لاحتواء مختلف المضامين الفكرية والفنية بطريقة تتسم بالمرونة.

3-بواعث الرحلات

ترتبط الرحلة بتحقيق غاية وهدف، وهو ما يجعل الرحالة يتحمل في سبيله المشاق والمصاعب، فتعددت بذلك الدوافع والحوافز التي شجعت على ممارسة هذا النشاط، فاختلف من فرد لآخر، ومن فترة لأخرى(سليمان ذياب، 2006، صفحة 06)، لذلك نجد في مقدمة هذه الدوافع الدافع الديني، الذي يقترن أساسًا بأداء مناسك الحج، إضافة إلى الدوافع العلمية التي كان الغرض منها اكتساب المعارف والاحتكاك بالعلماء، كما شكلت الدوافع السياسية هي الأخرى أحد أهم بواعث الرحلة؛ من خلال البعثات والوفود التي سعت لتوطيد العلاقات بين الدول وتوسيع شبكة العلاقات، كما يندرج ضمن البواعث أيضا الباعث التجاري الذي أدى إلى تطور التجارة واتساعها إلى توسيع آفاق أدب الرحلة(قنديل، 2002، صفحة 19، 20).

يُضاف إلى ذلك الباعث السياحي، الذي يحتل أهمية كبيرة في أدب الرحلات، فالرحالة يسعى في كثير من الأحيان إلى تلبية رغباته النفسية المفعمة بحب الاطلاع، واكتشاف المعالم السياحية في مختلف البقاع والأصقاع التي ينزل بها، لاسيما "أنّ السياحة تولّد شغفًا كبيرًا لجوب الآفاق والسعي لارتياد البعيد وامتطاء أجنحة الريح حبًا في المغامرة والترويح عن النفس، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز ركب الحُجّاج أو المهام الرسمية أو طلب العلم، فينتهز الراحل الفرصة مدفوعًا بروح المغامرة والاستكشاف"(الشوابكة، 2008، صفحة 95). من هذا المنطلق؛ كانت بواعث الرحلات متنوعة ومختلفة باختلاف الأغراض الإنسانية.

4- الأبعاد الدينية والاجتماعية في رحلة ابن جبير:

البعد الديني: يمثل الدين ركيزة من الركائز الأساسية التي تساهم في تكوين شخصية الإنسان وضبط سلوكه وتوجيه تفكيره " **لذلك فالنظم الدينية موجودة في كل المجتمعات الإنسانية، لأنها تسد حاجات اجتماعية هامة، فالدين يدفع الأفراد إلى تغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، كما أن الدين يؤدي دورا هاما في تكامل المجتمع عن طريق شعائره التي تحمي النسيج الاجتماعي من التمزق**"(لطفي، د.ت، صفحة 93)، ونظرا لأهمية الظاهرة الدينية لدى المجتمعات، اهتم ابن جبير بنقل جميع المشاهد والمعتقدات والأماكن المقدسة التي شدت انتباهه في مختلف البلدان التي ارتحل إليها، سعيا منه لإبراز ثقافات الشعوب والإشارة إلى مواطن التقائها واختلافها، حيث قدم لنا مجموعة من الصور الدينية التي نالت إعجابه، وتمثلت في بعض الشخصيات والرموز الدينية، وبعض العادات التي تعبر أخلاق المجتمعات.

4-1 –صورة السلطان صلاح الدين الأيوبي ومآثره:

تعد مدينة الإسكندرية من المدن التي نالت إعجاب ابن جبير في رحلته، حيث تجول في شوارعها واستطلع أحوالها، فأعجب بها إعجابا شديدا، وأرجع، الفضل إلى رقيها وازدهارها إلى سلطانها "صلاح الدين الأيوبي "، الذي كان مثالا يحتذى به في خدمة الدين الإسلامي والدفاع عن محارمه وتعظيم شعائره، ومن المشاهد التي تعبر عن عظمة هذا السلطان ما ذكره ابن جبير في سياق حديثه عن اهتمام السلطان بطلبة العلم الغرباء المتوافدين من مختلف الأقطار النائية، حيث يقول:" **واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم وخدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون لها من علاج وغذاء..**"(ابن جبير، د.ت، صفحة 15).

ومن النماذج التي تعبر عن شجاعة هذا السلطان وعدله، ماأشار إليه ابن جبير في معرض حديثه عن المغارم والمكوس التي كانت تفرض على الحجاج أثناء نزولهم في الموانئ فتؤرقهم، ويتجلى ذلك في قوله: "**ومن مفاخر هذا السلطان المقربة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا إزالته رسم المكس المضروب وظيفة للحجاج...وكفى الله للمؤمنين على يد هذا السلطان حادثا عظيما وخطبا أليما**"(ابن جبير، د.ت، الصفحات 30- 31).

نستشف من هذا المقطع صورة إيجابية قدمها الرحالة "ابن جبير" عن السلطان صلاح الدين الذي سن سننا محمودة، كان لها كبير الأثر في تخفيف العبء والمشقة عن أفواج الحجاج المتوافدين إلى المشرق الإسلامي لتأدية شعيرة الحج وطلب العلم في ظروف يسودها الأمن والطمأنينة النفسية.

4-2-صورة العادات الدينية:

ذهب ابن جبير في رحلته إلى رصد مختلف العادات الدينية التي وقعت عليها عينه في البلدان التي شد الرحال إليها، ومن الطقوس الدينية التي استرعت انتباهه، ماذكره عن أهل دمشق في **جنائزهم فنجده يقول: "ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلدان رتبة –احتفالات–عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا..."**(ابن جبير، د.ت، صفحة 267).

فهذه الصورة الحزينة التي يقدمها ابن جبير تعكس رهافة الحس ورقة الطباع ومتانة الأخوة التي يتمتع بها أهل دمشق، ومدى تعاطفهم مع بعضهم البعض في أوقات المحن والمصائب التي تحل بهم .

كما يذكر ابن جبير في رحلته بعض العادات التصرفات التي نالت إعجابه عن أهل دمشق أثناء تأديتهم للصلاة فيقول: **"وإذا سلم الإمام وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره، فيتفرقون عن مجلس مغفرة بفضل الله عز وجل، ويدعو بعضهم لبعض ن وتلك طريقة حسنة ينفعهم الله بها لما فيها من تعاطي الدعوات وتجديد المودات، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا رحمة من الله تعالى ونعمة"**(ابن جبير، د.ت، صفحة 269).

كما تجدر بنا الإشارة لبعض العادات الحميدة التي نقلها ابن جبير عن أهل المشرق، لاسيما في خدمتهم لقوافل الحجاج القادمين من المغرب، حيث يقول معبرا عن هذا المشهد بإعجاب: **"ومن عظم أمر المشارقة تعظيمهم للحجاج، فهم يتمسحون بهم عند صدورهم، ويتهافتون عليهم تبركا بهم ...وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال"**(ابن جبير، د.ت، صفحة 259).

يظهر "ابن جبير" في هذا القول إعجابه الشديد بالمشارقة، ونبل أخلاقهم وحسن صفاتهم، خاصة في خدمة الغرباء والحجاج المتوافدين إلى بلادهم، فيشعر الغريب وكأنه من أهل تلك الديار.

ومن المشاهد التي ذكرها ابن جبير عن بعض القبائل اليمنية التي تعرف بالسرو، أثناء تأديتهم للصلاة في البيت الكريم، قوله: " **وأما صلاتهم فلم يذكر من مضحكات الأعراب أظرف منها، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقرا، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد، وربما تكلموا في أثناء ذلك"**(ابن جبير، د.ت، صفحة 112).

يتضح من خلال هذا القول أن ابن جبير يتعجب من هذه الأحوال العجيبة الغريبة المتمثلة في هذه السلوكات التي يقوم به أفراد هذه القبائل اليمنية في صلاتهم، وذلك يعد أمرا غريبا منافيا للدين.

4-3-صورة النصارى:

لم يكتف ابن جبير، حين ارتحل من الأندلس إلى المشرق الإسلامي، بنقل المشاهد والعادات الشرقية، لكن غايته كانت أكبر من ذلك؛ لذلك نجده اهتم بالآخر المختلف عنه في المعتقد والمرجعية الدينية، حيث صوّر ثقافته وعاداته وطريقة تعامله مع الآخر، وتوصّل إلى إصدار أحكام نقدية تتراوح بين الإيجاب والسلب، انطلاقا من معاينته المباشرة لعاداتهم، وتفقده لأحوالهم.

ولعلّ الصورة السلبية التي تشكلت في ذهن ابن جبير عن النصارى كان مردها إلى بعض التصرفات والمعاملات المسيئة للدين الإسلامي، والمسلمين بوجه عام، ويظهر ذلك في سياق حديثه عن مدينة عكّة، التي انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين، فيقول: "وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري والمنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة،... سككها وشوارعها تغصُّ بالزحام، وتضيقُ فيها مواطئ الأقدام تستعرُ كُفرًا وطُغيانًا، وتفور خنازير وصُلبانًا، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجسًا وعَذِرةً، انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين فعادت مساجدها كنائس"(ابن جبير، د.ت، صفحة 276).

يتأسّف ابن جبير على الوضع البائس الذي آلت إليه هذه المدينة الإسلامية، التي اغتصبها هؤلاء الكفرة، فعاثوا فيها فسادًا وطغيانًا واعتداءً على مساجد المسلمين، واحتلالًا لبعض المواقع المقدسة فيها وتحويلها إلى كنائس.

وفي السياق ذاته، يشير ابن جبير إلى الصليب الذي عدّه رمزًا للاعتداء والسلب والطغيان، الذي امتدّ سلطانه بكلّ وحشية على أراضي المسلمين، وفي هذا الشأن يقول ابن جبير: "فمدينة عكّة دمّرها الله وأعادها أصبحت زفرة قذرة مملوءة كلها رجسًا وعذرة... فحفظ الله هذه البقعة من رجس الكفرة"(ابن جبير، د.ت، صفحة 296).

اقترن ذكر مدينة عكّة عند ابن جبير باللازمة الدعائية: "دمّرها الله"، وتلك إشارة واضحة لحالة الطغيان والكفر المهيمن على هذه البلدة، التي اغتصبها النصارى من بين أيدي المسلمين، واتخذوها موطنًا لهم في المشرق، دون مراعاة للحس الإسلامي.

كما أشار ابن جبير إلى مدينة مُسينة من جزيرة صقلية، أعادها الله تعالى، ففي هذه المدينة تتجلى لنا العلاقة المتوترة والمتأزمة بين المسلمين والنصارى، وألمح ابن جبير إلى ذلك في قوله: "هذه المدينة موسم تجار

الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقرّ فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان تغص قاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها، موحشة لا توجد لغريب أنسا"(ابن جبير، د.ت، صفحة 296).

يصوّر ابن جبير تلك العصبية الدينية المقيتة التي يتحلى بها النصارى تجاه المسلمين والغرباء في هذه المدينة، فالغريب فيها لا يحسّ بالطمأنينة والأمن والمسلم يجد صعوبة كبيرة في العيش فيها بسبب الكفر المهمين على شوارعها، إضافة إلى الآلام والمعاناة النفسية التي لحقت بهم جرّاء ظلم عبدة الصليب الإفرنج لهم.

لم يقتصر ابن جبير على ذكر المشاهد السلبية التي لاحظها عند النصارى، لكنه لمح بعض الجوانب الإيجابية التي نالت إعجابه، ورأى أنها تستحق الذكر، ويظهر ذلك أثناء حديثه عن فكرة التعايش والتسامح بين الأديان، مشيرًا بذلك إلى مواطن الالتقاء والتوافق بين المسلمين والنصارى، وبخاصة حين يجمعهم نطاق جغرافي واحد، ومثال ذلك مدينة بانياس التي قال عنها: "هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين... ولها محرث واسع في بطحاء متصلة، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حدّ يُعرف بحدّ المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها"(ابن جبير، د.ت، صفحة 275).

كما أشار ابن جبير فكرة التعايش والتسامح التي تجسّدت في أرقى صورة بين المسلمين والنصارى وذلك في سياق عن نصارى جبل لبنان، يقول: "ومن العجب أنّ النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزّ وجلّ فتجب مشاركتهم"(ابن جبير، د.ت، صفحة 259).

أشادَ ابن جبير بالجانب الإنساني الذي تميّز به النصارى في هذا المكان من خلال خدمتهم وإحسانهم للمسلمين، والجدير بالذكر أنه أُعجب كذلك بملك صقلية "غُليام" ووصفه بأنّ شأنه عجيب بحسن السيرة واستعماله للمسلمين في إدارة مملكته وحكمها، فهو كثير الثقة بالمسلمين، وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، ومن عجيب شأنه أنه يقرأ ويكتب بالعربية"(ابن جبير، د.ت، صفحة 297، 298).

مما سبق ذكره، يمكن القول أن ابن جبير استطاع أن يقدّم لنا صورة واضحة المعالم عن الذات المسلمة في المشرق، إضافة إلى ذلك أنه رصد بعض العادات الحميدة التي لاقت استحسانا كبيرا منه في الجهات المشرقية مع أنه في بعض الأحيان يبدي استياءه من بعض المعاملات السيئة فيدفعه ذلك إلى إصدار أحكام نقدية تعبر عن سخطه من هذه السلوكات.

5- البعد الاجتماعي في" رحلة ابن جبير":

يمثل الوضع الاجتماعي ركيزة من الركائز الأساسية التي تعبر عن البناء الفكري والأخلاقي للمجتمعات، فمن خلاله تظهر خصوصية كل مجتمع وما يتميز به من أساليب حياتية وطقوس شعبية تكشف عن درجة الوعي والتحضر لدى الأفراد والجماعات، ونظرا لأهمية البعد الاجتماعي حظي بقدر كبير من العناية والاهتمام في رحلة ابن جبير، الذي سلط الضوء على كل المظاهر والأشكال الاجتماعية التي شدت انتباهه في طريق رحلته، فقام بعملية رصد واستقراء لحياة الشعوب وعاداتها وتقاليدها ومختلف طقوسها وأحوالها المعيشية، معتمدا في ذلك على الوصف الدقيق والتحليل النقدي العميق لمختلف المشاهد الاجتماعية، ومن بين المظاهر الاجتماعية التي استرعت انتباهه نجد:

5-1-المعتقدات والعادات الشعبية: اهتم ابن جبير في رحلته بنقل العادات والتقاليد والمعتقدات التي تتميز بها الشعوب، فهناك بعض العادات الحميدة التي نالت إعجابه، وتجلى ذلك في مقام حديثه عن مدينة "حران وأهلها "،حيث يقول: " **وبهذه البلدة كثير من أهل الخير وأهلها هينون معتدلون، محبون للغرباء، مؤثرون للفقراء، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة..**"(ابن جبير، د.ت، صفحة 220) ، ومما أعجب به كذلك مدينة "نينوى " التي أشاد بالخصال النبيلة والمعاملة اللطيفة التي يتمتع بها أهل هذه البلدة، ولاسيما في معاملة الغرباء، ويظهر لك في قوله: "**وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة، يستعملون أعمال البر، فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة، ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم، وعندهم اعتدال في جميع المعاملات**"(ابن جبير، د.ت، صفحة 112).

يوحي هذا القول على الصورة المشرقة التي استحسنها" ابن جبير "عن أهل هذه البلدة وما يتسمون به من كرم الضيافة وحسن المعاملة وطلاقة الوجه، وبخاصة في استقبال الغرباء.

ومن المشاهد والصفات المقيتة التي أنكرها ابن "جبير " ما ذكره عن أهل بغداد وذلك في قوله: "**وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم..**"(ابن جبير، د.ت، صفحة 194).

كما أشار "ابن جبير" إلى بعض المعتقدات التي شدت انتباهه في المسجد الحرام، والمتمثلة في غسل البيت بماء زمزم، ويظهر ذلك في قوله: "**فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون إليه تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه، وربما جمعوا منه في أوان قد أعدوها لذلك ن ولم يراعوا العلة التي غسل**

لها.."(ابن جبير، د.ت، صفحة 112) ، ولعل إعجاب ابن جبير بهذا المعتقد السائد في المسجد الحرام عائد إلى تشبعه بالثقافة الدينية التي عبرت عن بركة ماء زمزم.

5-2-صورة المرأة في"رحلة ابن جبير":

تعد المرأة عنصرا فاعلا في المجتمع، نظرا لما تقوم به من وظائف مختلفة وخدمات جليلة، لاسيما في تكوين الأسرة وتربية الأجيال، غير أن المرأة تختلف في عاداتها وتقاليدها وشكل لباسها من مجتمع لآخر، ومن بيئة جغرافية لأخرى، لذلك نجد ابن جبير في رحلته لم يغفل عن نقل بعض المشاهد التي لاقت إعجابه عن المرأة في بعض البلدان التي زارها، خاصة أثناء حديثه عن مدينة من مدن الصعيد ومآثرها، حيث يقول: "**بيضاء أنيقة المظهر ذات مبان حفيلة، ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت، فلا تظهر في زقاق من أزقتها امرأة البتة**.."(ابن جبير، د.ت، صفحة 40).

يقدم "ابن جبير" في هذا القول صورة إيجابية مشرقة تعبر عن قيمة المحارم عند أهل الصعيد ، مما يعكس مدى حرص الرجل على صون نسائه من التبرج والسفور في الأزقة.

ومن أحفل المشاهد الدنيوية التي شاهدها ابن جبير في مدينة الموصل التي حط الرحال بها امرأة تدعى: "خاتون المسعودية" أم عز الدين أمير الموصل، التي وصف مآثرها وأشاد بأخلاقها، وتجلى ذلك في قوله: "**وأخبرنا غير واحد من الثقات، ممن يعرف حال خاتون هذه أنها موصوفة بالعبادة والخير، مؤثرة لأفعال البر، فمنها أنها أنفقت في طريقها هذا إلى الحجاز في صدقات ونفقات في السبيل مالا عظيما، وهي تحب الصالحين والصالحات**.." (ابن جبير، د.ت، صفحة 213).

إن الرحالة ابن جبير يقدم لنا صورة للمرأة العربية العابدة الملتزمة الزاهدة في متاع الدنيا، الراغبة في خير الآخرة، لذلك فهذه المرأة قد بلغت درجة كبيرة من الوعي جعلها تبذل وتنفق أموالا كثيرة دون شح ولا بخل على الفقراء والمحتاجين.

5-3-صورة الملابس وبعدها الاجتماعي:

يمثل اللباس مظهرا من مظاهر الثقافة والتحضر لدى المجتمعات، لذلك يتميز كل بلد بنوع خاص من اللباس يميزه عن غيره من البلدان، والذي لا جدال فيه أن التنوع والاختلاف في شكل اللباس يعكس الذوق البشري والحالة الاجتماعية بصفة عامة، وقد وصف "ابن جبير "هذا التنوع في سياق حديثه عن لباس النصرانيات في يوم عيدهن في مدينة صقلية، فيقول: "**وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن ملتحفات منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة**.."(ابن جبير، د.ت، صفحة 307).

اللافت للنظر في هذا الوصف يكشف أن لباس المرأة النصرانية لا يختلف عن لباس المسلمات.

وقد أشار "ابن جبير" إلى زفاف عروس إفرنجية في مدينة صور، حيث قام بوصف زي لباسها وحليها، فيقول: **"وهي في أبهى زي وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وهي رافلة في حليها وحللها، تمشي فترا مشي الحمامة أو سير الغمامة"**(ابن جبير، د.ت، صفحة 278).

يمثل هذا القول وصفا دقيقا لمشهد من المشاهد المتعلقة، بمناسبة اجتماعية تمثلت في الزفاف، كشفت فيه المرأة النصرانية عن جميع أدوات الزينة التي تتميز بها عن غيرها من النساء في المناطق الأخرى.

ومن المظاهر التي تعكس الاختلاف بين طبقات المجتمع في اللباس، ما لفت انتباه ابن جبير وهو يتحدث عن أهل عيذاب متعجبا من لباسهم ومذاهبهم الفاسدة، حيث يقول:**"ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقا يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يسترون، وبالجملة فهم أمة لاخلاق لهم ولا جناح على لاعنيهم.."**(ابن جبير، د.ت، صفحة 49).

نلاحظ أن "ابن جبير"قد ساءه ما شد انتباهه عند أهل عيذاب من ممارسات لا أخلاقية تعبر عن عقائد وأعراف فاسدة تنعدم فيها الأخلاق، حين يتعلق المر بستر العورات.

إن ما قدمه ابن جبير في رحلته عن اللباس كشكل من أشكال التمدن والتحضر،يعبر عن عادات الأمم وتقاليدها في اللباس، كما أنه في الوقت نفسه يعبر عن الوضع الاجتماعي لدى كل مجتمع، وهذا مايظهر بشكل جلي خاصة في المناسبات كالأعراس والأعياد، التي تكشف عن مظاهر التباين والتلاقي الحضاري بين الشعوب في طريقة إحياء هذه المناسبات والتفاعل معها.

6-خاتمة:

بناء على ما سبق ذكره في هذه الدراسة تم التوصل إلى مجموعة من النتائج أهمها:

-إن رحلة ابن جبير اشتملت على مختلف الملامح الدينية التي تمثلت في وصف الأماكن المقدسة والإشادة ببعض الرموز الدينية، وكذا التطرق لأهم العادات الدينية لاسيما في مواسم الحج وشهر رمضان.

-ساهمت رحلة ابن جبير في كشف خصوصية كل مجتمع وأساليبه الحياتية وطقوسه الشعبية.

-بروز اللباس كشكل من الأشكال المعبرة عن الوضع الاجتماعي السائد لدى الشعوب وبخاصة في المناسبات كالأعراس والأعياد وغيرها.

-رصد الرحالة لصورة المرأة عند بعض المجتمعات، وإبراز دورها الفعال في الحفاظ على النسيج الاجتماعي من التمزق والتشتت.

-اعتماد الرحالة على أسلوب قصصي مشوق ولغة أدبية ممزوجة بانطباعات الرحالة لاسيما في نقل الأحوال الاجتماعية التي شدت انتباهه.

-سعى ابن جبير من خلال رحلته إلى إبراز مواطن التلاقي والاختلاف بين الأنا والآخر، ومدى تأثير ذلك في خلق جسور التواصل بين الحضارات والشعوب.

7-قائمة المصادر والمراجع:

ابن جبير،أبو الحسين أحمد. (د.ت). رحلة ابن جبير (الإصدار د.ط). بيروت، لبنان.

أبو سعد، أحمد. (1961). أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي (الإصدار ط1). بيروت، لبنان: دار الشروق الجديدة.

سليمان ذياب، تقوى. (2006)، أدب الرحلة في العصر العباسي في القرنين الرابع والخامس هجري، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، إشراف عبد الجليل عبد المهدي، جامعة اليرموك.

الشوابكة، نوال عبد الرحمن. (2008). أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الإصدار ط1). عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع.

قنديل، فؤاد. (2002). الرحلة في التراث العربي، (الإصدار ط2)، القاهرة، مصر: مكتبة الدار العربية للكتاب.

لطفي، عبد الحميد. (د.ت). علم الاجتماع (الإصدار د.ط). بيروت، لبنان: دار النهضة.

وهبة، مجدي، ومهندس، كامل. (1948). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (الإصدار ط2).

الموافي، ناصر عبد الرزاق. (1995). الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع (الإصدار ط1). القاهرة، مصر: دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء للطباعة والتوزيع.